

التعليم والمتعطلون في مصر

الأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

هناك غير ذلك حب التضحية والابثار ، وفي هذا يقول

الله في كتابه الكريم : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وهذا يستلزم أن يترن الفتى أو الشاب أو الرجل على عمل الخير والاحسان إلى الغير في القول والعمل وأن يقلل من التفكير في شخصه ومصالحه الخاصة . وأن يتصفع عن العمل لنفسه فقط . وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » ويقول سننكا : « لو أعطيت الحكمة كلها لنفسى على أن أستاذ بها وأمتعها عن إخوتي بنى الانسانية لكهرت الحكمة »

ولا شك أن تمرين الانسان نفسه على حب غيره ومساعدته مع التقليل من حب نفسه يدفعه إلى الاحسان المستمر . وإلى البذل ثم إلى التضحية وإبثار غيره على نفسه . وهو أعلى مراتب سمو الانسانى .

ومن أحسن الامثال التى يمكن أن تضرب في التضحية والابثار ما قرأناه عن أمة اليابان الفتية وإقدام أبنائها على بذل المهج والتضحية بالنفوس في سبيلها . من ذلك أن الحكومة أعلنت عن « طورييد » اختراعه أحد المخترعين يستلزم دخول إنسان فيه يوجه إلى هدفه إذا ما قذف ، فإذا اصطدم بالهدف بارجة كان أونسافه أو غواصة انفجر بمن فيه فقتله في الحال . ولكنه في الوقت نفسه يفتك بهدفه فتكا ذريعا ثم أعلنت عن حاجتها إلى أربعمائة شخص لهذا الغرض المهلك . فتقدم إليها سبعة آلاف شاب يطلبون تلك التضحية عن طيب خاطر . وفي تاريخنا الاسلامى أمثلة كثيرة من التضحية والابثار فلقد ورد عن سيدنا على بن أبى طالب زوج فاطمة ابنة الرسول أنه قال لها يوما : جهزى لنا طعاما . فقالت : والله ليس عندى غير الماء . فقال لها : إذنت أمسك اليوم صائما . ثم قال لها في اليوم التالى : جهزى لنا طعاما بإفطمة . فقالت : والله ليس عندى غير الماء . فأمسك صائما ثم تكرر ذلك في الـ ١٠٠ . وفي اليوم الرابع خرج إلى السوق

فلا فائدة من الأخلاق والعلوم والبدوات ما دام القلب فارغا من الله . وقد قلنا في مقال « حرمة البيان » « ما هو الحق ؟ ما هو الشرف ؟ لولا الله ، كل المعايير ساقطة باطلة مبللة إذا لم تكن في يده هو . . . كل الصدق كذب . . . وكل الخير شر ، إذا لم يقله لنا هو . . . »

لعمري الحياة لو كان الايمان كذبا لكان الله من الصدق ! وما دام الانسان يطلب السعادة والراحة فلماذا لا يطلبهما هنا ؟ لماذا يخطئ معنى دواهما ؟ افرضوه كذبا . . . فهل برئت حياتكم من الكذب ؟ إنها مجرعة أكاذيب مات منها حكاؤكم غيظا أيها الناس !

إنه قياس أدركه الأقدمون واختار الغلاء منهم ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخاسر عليكما وما دهم تقيسون قيمة الشيء بالمنفعة ، فأيا شئ أنفع من معنى الايمان في حياتكم ؟ إنه أعظم معنى جلب النفع للبشرية . وقصة تقدم الانسانية هي قصة المؤمنين منها ؛ فانهم هم الذين تسلموا قيادها مرحلة مرحلة لأنهم أحسوا الايمان بالقيوم الأكبر فأحسوا الرصاية نيابة عنه على التقطيع القاصر ، وحملوا أعباءه ونهضوا بها نهوض الجليدين الضليعين الذين لم يستول عليهم ضعف البشر لأنهم أولو المزم الذين في قلوبهم ذلك المعنى الحديدى الذى لا يفت منه شئ : وهو الصبر ! « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » فكل معانى شرف الانسانية شعب وفروع من تلك الأرومة

ولذلك لو تغيرت فكرة الالهية يجب أن تتغير موازين الخير والشر . ولكن في ضمير الانسانية إيمانا عميقا بالخير من غير سبب ظاهر ، وكفرا عميقا بالشر من غير سبب ظاهر ؛ وقد أدى ذلك الفيلسوف الانجليزى « باركلي » إلى أن يأخذ من هتاه برهانه على أن هناك عقلا أعظم قد أقر موازين الخير والشر في القلوب كما هما ، لأن الخير والشر عنده كذلك

عبد المنعم مهنون

« الرستية »

فرهن بمض الأشياء عند يهودي واشترى بما أخذه من تقود دنيكاً وسمناً وعسلأ وأحضره إليها . فجهزت الطعام ولما جلسا للأكل دق الباب فقام فوجد رجلاً يبكي فقال له : ما خطبك ؟ قال : لي عشرة أيام لم أذق الطعام . فماد فأخذ إليه ثلث الطعام . ولما جلس مع زوجه إلى الأكل دق الباب ثانية فقام فوجد امرأة ومعهما طفل رضيع . بكيان فقال : ما خطبك ؟ قالت : لهذا الطفل ثلاثين خمسة أيام لم يذق الطعام . فذهب فجاءها بالثلث الثاني من طعامه . ثم عاد فجلس مع زوجته للأكل فدق الباب ثالثة فذهب فوجد رجلاً مسلماً كان قد أسره الكفار ثم هرب منهم ولم يتذوق الطعام منذ خمسة عشر يوماً فجاءه بالثلث الأخير من الطعام ، ثم خرج إلى المسجد جائعاً ، فوجد رسول الله جالساً قابضاً رأسه . وقال له : لقد أنزل الله فيك فراقاً قال : وما هو يا رسول الله ؟ فقرأ « ويطمعون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » فسر على بذلك سروراً عظيماً . وكان هذا نعم الغذاء الرزقي . بأمثال هذه القصص والحوادث يجب أن يتعلم الناشئة كيف يكون البذل ، وكيف يكون الايتار

ثم هناك بعد ذلك تمويده الناشئة على الاعتماد على النفس والتغلب على الصواب بالكافة والثابرة وهو خلق نجد شباب اليوم أشد ما يكونون حاجة إليه في معارك الحياة ومتنافساتها القوية ، ويستلزم أن يحزن الفتى على الصبر على المكروه واحتمال المشاق والثابرة على العمل فلا يتبرم إذا أخفق ولا ييأس إذا فشل . بل يتابع عمله ويستأنف جهوده مستبشراً بالمستقبل مملوءاً آملاً وثقة بالنجاح والوصول إلى هدفه عاجلاً أو آجلاً مهما لقي من عنت أو إرهاق جاعلاً نصب عينيه مثله العليا حتى يفوز بما يبتغي . فقد قال نابليون — بونابرت : « لا مستحيل على قلب الشجاع » وإن أخوف ما أخاف على شباننا ضعف المزامم وقلة الافرنام وعدم الثابرة . ولو أنهم قرأوا شيئاً من تاريخ الغرررين والمصالحين والمجاهدين . وما لقيه من عنت وإرهاق وهؤلاء وأولئك من أمثال نيوتن وجاليليو وباستير وجان دارك ومصطفى كامل وفريد وسعد زغلول ؛ بل لو أنهم قرأوا مآلقيه صاحب الرسالة الإسلامية في سبيل دعوته من عنت وإرهاق واضطهاد وعذاب وتسريد لرفوا حقاً كيف تكون قوة الايمان وكيف تنجح الثابرة والمصابرة

وتلك صفات إذا غرست في الفتى ، وتهمد المشرفون على تكوينه وتربيته تغذيتها وتقويتها بالمثل الصالحة أنتجت الانتاج المفيد الثمر ، وإن في قول الملامة بوفون « ليست المبقرية إلا الصبر الطويل » لدليل آخر على ذلك وهناك فوق كل ما تقدم خاتم آخر جدير بأن يعنى به العناية كلها في وقتنا الحاضر وهو خلق غير فردى ، بل خلق جمعي يث بين الجماعات المكونة لطوائف مختلفة في سبيل مصلحة الجماعة وفائدتها . ذلك هو التضامن وهو الذي يقول فيه الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ولقد أصبح هذا الخلق ضرورياً لمختلف الطوائف لأنه من الأمور التي يبني عليها نجاحها في معترك الحياة ، وإن طوائف المال في مختلف الممالك لم تنجح النجاح الباهر الذي أدى بها إلى تعلم مقاليد الحكم كما حصل في إنجلترا إلا بتضامنها وتعاونها وتساندها . وإن في اشتراك جماعات الطلبة في عمل واحد لا يقوى عليه فرد واحد منهم كما هو الحال في معظم أنواع الألعاب الرياضية لطريقة ناجمة تعودهم هذا الخلق المفيد . تلك هي الأخلاق التي يجب على كل والد أن يتولى غرسها في ولده ، كما يجب على كل مدرسة أن تنمدها وتنميتها وتشجعها في أبنائها . وإنه لما يؤسف له حقاً أن المدرسة الحالية توجه أشد عنايتها إلى الكتب ودراسها والناهج واستيعابها وملء عقول التلاميذ بمحتوياتها ليؤدوا فيها الامتحان المطلوب منهم في آخر العام من غير أن تعنى العناية المطلوبة بتشكوين النفس التشكوين الخلق الذي تتطلبه الحياة . يقول صميلز في بدء كتابه عن الأخلاق « الأخلاق من أمهات القوى في هذا العالم . وهي في أبهى مظاهرها تمثل الطبيعة البشرية في أرقى أشكالها . لأنها تظهر الانسان وهو في أرقى خلاله ، ثم إن النوع البشري خاضع مسخر للرجال ذوى الكد والاستقامة التشبيين بالأخلاق الراقية والأغراض السادة الخالصة ، لأن الاعتقاد في مثل هؤلاء والثقة بهم والتشبه بأعمالهم غرائز في النفس . أولئك هم دعائم ما في هذا العالم من خير ، ولولاهم لكان الوجود في هذا العالم عبثاً ، وإن كانت المبقرية تحرك الإعجاب فان الأخلاق ضامنة التوقير والاحلال . ذلك أن هذه منشؤها قوة العقل ، وهذي منشؤها قوة القلب ، والقلب عادة صاحب السيطرة في الحياة .

فالمقربون في المجتمع بمنزلة الذهب من الانسان ، وذوو الأخلاق بمنزلة اللمعة . وبيننا أولئك بمحبة بهم إذ هؤلاء يهرع إليهم » وقال أيضاً : « كم من أمان لا يملكه من الدنيا سوى أخلاقهم ، وهم بفضلها كصاحب التاج المدل بتاجه ، وليست طهارة الأخلاق وحسبها من منزلات ذوى العقول المتقنة بالمعارف . فقد يجتمع التفوق العقلي والأخلاق السافلة فيمثل التعلل النقص لدى القامات الرفيعة . ثم يتطرس على ذوى المنازل الوضيعة » وقال جورج هيربرت : « قليل من الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة » ثم قال صميلز في موضع آخر « ليس الاستعداد العقلي ولا التفوق الذهني بتأدين في العالم ، ولكن هل يستمد على الاستعداد للعقل وحده ؟ وهل يؤمن التفوق الذهني ؟ كلا . اللهم إلا إذا رافقهما الحق فهو الخلة التي تضمن لصاحبها التبجيل والتعظيم ، وتحمل غيره على الثقة به ، وهو أساس كل فضيلة ، ويظهر في معاملة المرء وسلوكه ، وهو الاستقامة والأخلاص في العمل وله نور يسلط في كل قول وفعل ، هو الباعث على ثقة المرء بنفسه والحامل للناس على الثقة به ، والمرء ذو المكانة في العالم هو الذي يصح الاعتماد عليه ، هو الذي إذا قال إن له علماً بشيء كان عالماً به حقاً ، وهو الذي إذا قال إنى فاعل شيئاً فله حقاً ، وهكذا يحصل الوثائق بنفسه على ثقة الناس به واعتراهم بقيمته » وقال سترن لوتر : « ليست سماعة الأمم في كثرة أموالها ؛ ولا في قوة استحكاماتها ، ولا في جمال مبانيها وشاهق قصورها ، إنما سعادتها في أبنائها المثقفين ورجالها المهذبين الذين استنارت بصائرهم واستقامت أخلاقهم ، فهؤلاء قوتها الأساسية وعظمتها الجوهرية » فهل بعد هذا كله يحق للمدرسة أن توجه كل جهودها إلى الثقافة ودراسة ما في بطون الكتب إعداداً للامتحان من غير أن تكثر بمادة الحياة الأساسية وهو الأخلاق ؟ وهل بعد هذا نتظر من خريجي مدارسنا أن يقوموا على العمل ، وأن يسيروا في حياتهم السيرة الحيدة المطلوبة وقد أهملهم هذا الإهمال

إهمال المدرسة للمعروف ونتائج

وإني لا أستطيع أن أنسر إهمال المدرسة في تقوية أخلاق للنشء والعمل على تكوينهم تكويناً خلقياً طالاً بالأمور ثلاثة :

الأول : اندفاع المدرسة في تيار السياسة التعليمية التي رسمت لها عملياً من قبل وجمال النجاح في الامتحان في نهاية المسام الدراسي هو الغاية التي ليس وراءها غاية من غير أن يفكر ولاية الأمور وقادة التعلل فينا تفكيراً جدياً عميقاً فيما يستدعيه الإصلاح الحقيقي للمدرسة وهذا ما ينبغي مع نهضتنا الجديدة وقوميتنا

الثاني : صعوبة ما يستدعيه العلاج الخلق المدرسي من درس وخص وتخصيص وما يستلزمه من صرامة في العمل وعدم الوقوف عند الخطأ الآلية التي تسير عليها المدرسة الحالية من حيث قياس الأعمال بالدرجات في الامتحانات ونتائجها . وما يستدعيه فوق ذلك من السلطة المركزية من الديوان المسام إلى أيدي الشرفيين الفعليين على المدارس . وهو الأمر الذي لا زال يقاوم إلى اليوم

الثالث : عدم ثقة القاضين على زمام الأمر في الوزارة بالمشرفين على المدارس والقائمين بالأمر فيها مما حال بين أولئك وبين ثقة غيرهم بهم . فأدى ذلك إلى انحطاط مستوى رجال التعليم الأدبي وتفوذهم في الهيئة الاجتماعية وفي هذا ما فيه من النزول بالمدرسة إلى مستوى لا يليق بها .

من أجل هذا أهمل تكوين الخلق في المدرسة فأنحطت الأخلاق العامة وتدهورت وصارنا اليوم نواجه في شبابنا حالة سيئة لا يرضاها وطني يحب لبلاده : نرى شبابنا طاطلاً خلوا من حب المناصرة والاقدام والنزول إلى ميدان العمل والكفاح في الحياة مليئاً بأنواع الخنوة والطرادة ، وعدم القدرة على المثابة والنضال وأتجه همه إلى العمل ببعض حادات الفرنج التي أصبح كثير من الفرنج يستقبحونها ويعتقونها كالتخلعة والرقص وحب اللهو واللعارة ، وصار أحب شيء إليه التأنق في اللبس وارتياح حال اللهو والفجور والتهتك في الطرقات ، وارتكاب المحظورات والمحرمات ، والعمل على الحيلولة على المال اللازم لذلك بالتدليس والفسخ والانتصب والزور والاحتيال ، مع اناروج على المبادئ العامة المقررة في الأسرة والمدرسة ، فالصغير يريد أن يرغم الكبير على الاستماع لأمره وتنفيذ رأيه ، والتلميذ يرغب في أن يقود أستاذه وناظر مدرسته كما يشاء هو . وقد ساعده على ذلك ما نعرف نحن كما يعرف غيرنا من رجال التعليم من مآس كثيرة وقعت في المدرسة بسبب أخطاء خلقية كبيرة ارتكبتها الطلبة

الحاجي النابه الذي يوكفه أحد المتقاضين في قضية له ، وينقده نصف الأجر ظاناً أنه سيعمل في صفه بأخلاص ، فإذا به يتصل بالخصوم ، ويأخذ منهم من المال كل ما تصل إليه يده ليهمل في حقوق موكله فتضيع عليه حقوقه ؟ وهلا قرأت في الجرائد اليومية حيل المحتالين والنصايين وحوادث التزوير والتدليس ، والاعتداء على العفاف والطهر مما يتراد ضرره كل يوم وتعلل به الجرائد صفحاتها ومع ذلك فهناك فوق ذلك وأسفاه كثير مما لا يصل إلى تلك الجرائد ، هذه بعض الحال السيئة التي وصلنا إليها ، وهي تنخر في عظام الأمة نخرًا ، بينما قادتنا وساستنا لاهون عنها ، مع أن معظمهم قد ذاق الأسرين منها وانكوي بنارها ، فحذير بهم أن يعتنوا بها قبل عنايتهم بأي أمر آخر مهما كان هامًا . وإنى لأرى محلا للعناية بها وإصلاحها غير المنزل أولا ، والمدرسة ثانيا ، وإذا كان المنزل أساسه وقائده وحاكمه هو المرأة ، وتربية المرأة متوقفة كذلك على المدرسة ، فقد صارت المدرسة عندنا هي الحجر الأساس في تكوين الأخلاق وإصلاحها .

يقول صميلز في كتابه الأخلاق : « وهكذا اضمحلت رومة ثم لحقها الدمار لما عم أبنائها فساد الأخلاق ، واستولى عليهم حب اللهو والخيول ، حتى كانوا في أواخر أيامهم يرون العمل لا يليق إلا بعبيدهم . أمسك أبنائوها عن التحلي بما تحلى به آبائهم الأولون من فضائل الخصال فسقطت السولة ولم تكن أهلا للبقاء . وهكذا تسقط الأمم الخاملة النهمكة في اللذات ، الرانمة في مجبوحة الترف ، والتي تستنكف العمل الصالح ، تسقط لاهالة ويخافها في عظمتها الأمم الحية العاملة » ثم يقول في موضوع آخر « وبجمل القول أن سلامة الأمم والحكومات تتوقف على سلامة الأخلاق ولن تكون أمة عظيمة من أفراد فاسدى الأخلاق ، مهما لاحت عليهم آثار الحضارة والرقى . ولكنهم لا يلبثون أن يتلاشوا متى صادفهم عقبة أو غشيتهم شدة . ولن يكونوا ذوي قوة حقة ورابطة متينة وسلامة تامة إلا إذا انصف كل فرد منهم بالصفات الجيدة والخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة » .

عبد الحميد قسطنطيني

وأردت المدارس أن تتممها بالمقوبة الرادعة ولكن الوزارة عن طريق الشفعاء السوء كانت تهمل رأى المدارس بل كانت تجبرها أحيانا على القيام بمكس ما تراه بالانتصار للمخطئين والخارجين على حدود الآداب والفضيلة مما أدى في بعض الأحيان إلى نقل ناظر المدرسة أو بعض المدرسين الذين لا يروق لهم ذلك . ولم يقف الأمر عند المدرسة بل انتشرت الفوضى الخلقية انتشاراً مخيفاً يشفق على هذه الأمة منه عقلاؤها . ويكفي أن ندلل على تمسك الكثيرين من المتعلمين بأهداب الفضيلة وكرم الأخلاق مما يقع تحت حسننا ونظرنا في المجتمع المصري في كل يوم وفي كل لحظة : فهلا سمعت برجل الصحافة الذي يهاجم أشرف أناس وأبرياءهم ، وهم هادئون آمنون فيمنش أهراسهم ، ويقذفهم بأشنع التهم وأخس السباب ، حتى إذا ما استدعاه أحدهم ونقده الجنية أو الجنيتين ، انقلب في يوم وليلة مادحا له معتذرا عما سلف منه بمختلف الأهدار السخيفة ، فإذا ما نفحه شيئا جديداً بعد ذلك كال له من المدائح ما يجعله في مصاف الأبطال والمجاهدين ؟ وهلا سمعت بذلك الموظف الذي يدين بمر كزه الكبير لوزير من الوزراء فتراه يتردد على منزله كل يوم ليقدم له فروض الطاعة والولاء وليقوم بخدمته في كل ما يطلبه منه مهما جل أو قل ، ثم هو فوق ذلك يخضع لهواه في كل صغيرة وكبيرة مهما كافه ذلك من الشطط والانحراف عن جادة الحق والعدل ، فإذا تبين منه قليلا من الانتقاد أو الامتناع من موظف آخر صغير لسوء فهم أو للتباس في أمر أسرع فأنزل به السخط وألبسه ثوب الدل وصادره في رزقه وكرامته مهما كان ذلك الموظف الصغير مخلصا في عمله مؤديا لواجبه مستقيما في حياته محتفظا بكرامته . والأدهى من ذلك أننا نجهد ذلك الموظف الكبير الذي ظلم الناس وداس كرامتهم متابعة لهوى سيده ينقلب في طرفة عين عليه إذا ما زحزحت الظروف ذلك الوزير عن مركزه ، وحل محله غيره يخالفه في الرأي . فوظفنا العظيم لا ينقطع عن زيارات سيده السابق ولا يقطع علاقته به فحسب ، ولكنه فوق ذلك يتحامل عليه وعلى أعماله أمام سيده الجديد إرضاء له ، وهو فوق ذلك يحاربه بكل قوة ، وينقلب عدواً لدوداً له . وبذلك يكسب عطف سيده الجديد ويضمن الرقي على يديه . وهل بلنك خبر ذلك